قصة

صدى الشهرة

الكرمانيول[1]

للكاتبة الفرنسية « ماري مانسرون »
ترجمة الآنسة : نعمت صدقي

عندما جاءت مدام « بريسون » للمرة الأولى ، إلى سجن المعبد ، ومعها ملابس الأميرة الملكية ، إذ كلفت بتنظيفها واحضارها الى السجن كل أسبوع ، فانها لم تتمالك نفسها من الاضطراب ! ولكن كيف ذلك ؟ !

ان مدام بريون ، تكره الظلمة الطاغية — من الملوك — وتعلن هذا الشعور للملتهب في باستيل وهناس . . وتنتظر سنوح الفرصة ، حتى تثبت ذلك بأجلى برهان . وها قد سنحت الفرصة ، وها هي صحبة حارس السجن ، تصعد الدرج المظلم ، وقد امتلأ قلبها بالتشوق لمشاهدة . . فاذا ما انتهت الى حجرة السجناء ، دلت الاذن بالدخول في كثير من لطف . ولكن بمجرد أن دخلت الحجرة ، خفضت عيناها من نظراتها الواثقة ، من أي تدري لذلك من سبب . . ثم إنها شعرت ان صوت خطواتها يرجع رهيب . . مخيفة !

من يكون هذا الرجل ، ذو الجسم الممتلئ ، والخدين المتوهجين ، الذي تراه أمامها . . أترى الملك ؟ أجل . . انه الملك من غير شك .

كان يرتدي في غير تأنق ، سروالاً من الصوف البنفسجي اللون . . وسترة بلية قد حكت بعض أزرارها من عراها ، فظهرت من تحتها صدرة من الحرير المنقوش برسم زهار .

---

[1] ان أنشودة كان يرددها الثوريون في باريس عام ١٧٩٣

ويدت على وجه الملك سمة الرضا والتسليم . أو ربما كان هذا رمز النعمة الحزينة ، وليدة المصائب والمحن !

كان لويس السادس عشر ، يجلس على كرسي كبير ، وقد أمسك في يده كتاباً ، وهو يملي منه املاء على ولده الطفل الجالس الى منضدة أمامه .

ورغم أن هذا الطفل هو ولي العهد ، ابن مدام باريون ، وهي أم لطفل مثله . . قد انجذب قلبها الى هذا الطفل الجميل الذي تبعثر جعد شعره الأشقر الحريري فوق كتفيه ، وراح بعضها يلتوي فوق الظهر . ولكن ما هذا العطف . أيليق تقبيل هذا الطفل ، وهو ابن لويس السادس عشر ؟!

وفي الطرف الآخر من الحجرة ، جلست امرأة ترتدي ثوباً بسيطاً من حرير اتفاقاه الرمادي اللون . وأمامها طفلة تجلس على كرسي صغير . إنها الملكة ، وقد انهمكت في تعليم ابنتها الحياكة .

كان الهدوء شاملاً . والملك يملي على ولده دروس الاملاء ، بنغم واحد متواتر . وفي المسافة ما بين الملك والملكة ، كانت شعاع خريف ترسم على بلاط الحجرة ، في خط مستقيم من نوافذ الواجهة ، خيالاً ضيقاً مستطيلاً لشبكة ذات القضبان الحديدية .

وتريثت مدام باريون هنيهة . . ثم أخرجت الثياب الملكية من سلتها ، ووضعتها على منضدة هناك . وكان الخادم الذي أوصلها ، واقفاً ينتظر خروجها حتى الباب . ثم لمحته وقد توارى . . فتبعت اثره راقبها . يا للعجب ! أيجول بخاطره أن تلك المرأة التي تلهب وثنية وحماساً تميل الى هؤلاء القوم ! حقاً إنه لمنتهى الجنون ! . . .

ولكن يا لها من أسف إذ ترى أن الملك تبدو عليه الطيبة ، وصلابة القوية ! فلو كانت تبدو عليه سمة الخبث والشر لاستمرت ثقته ، وهي في ولعة أكثر مما هي الآن .

كانت مدام باريون ، تواثب على الحضور لكل أسبوع ، لاحضار الملابس بعد تنظيفها ، الى سجن المعبد . . حيث الأسرة الملكية . . وكانت وهي تؤدي مهمتها هذه تمثل العاملة المجدة المتأنقة .

وكانت دهشتها تتزايد ، وهي ترى تلك المشاهد المألوفة في كل أسرة ، ترأسها ضد

رتها لسجن المعبد كل أسبوع . . فاذا هي ليست غريبة كما كانت تتوهم .

وها هي ذي تدخل يوماً، فترى ملك فرنسا وقد وقف بالقرب من النافذة، يتأمل الشمس ي تميل الى المغيب . وشعر الملك بدخول منظفة الملابس ، فالتفت إليها مبتسماً كأنه حب بها . . حتى لقد شعرت مدام بارون ، بهاجتها الى البكاء . ترى ما هو السبب في هذا شعاف ؟ قد يكون الملك ، بهندامه القديم النظيم وجسمه النليظ ، قد ذكرها بزوجها رفي !

وأحست منظفة الملابس ، أن نفسها قد انقبض بشكل غريب ، واستولى عليها الحزن سيق ، يوم ان صعد لويس السادس عشر إلى المقصلة .

تغيرت آراء مدام بارون ، فالملك لم يكن بالرجل الشرير ! ولكن الملتفين حوله أشاروا ه بكل ما هو خطأ . . ولولا ذلك لكان يشبه على أحسن ما يكون . ثم زوجته ، ه النمسوية الملعونة . . التي كانت السبب الأقوى فيما هوى به . إنها لم تكن تحب الملك جها . وهي حقيقة لا يجهلها أحد !

كانوا قد فرّقوا بين ماري انطوانيت وبين طفليها ، بعد إعدام الملك . فنقلوها الى سجن كونسيرجيري ، حتى لا تفكر في الهرب . . . ويوم أن أرجعت مدام بارون ، الى سجن سكة . بعد هذه الحوادث ، وجدت أمامها امرأة صغيرة . تلبس الثياب السود . يدة في سجن مظلم . دخلت منظفة الملابس وكانت ماري انطوانيت ، جالسة إذ ذاك منضدة عتيقة وقد استندت اليها بمرفقيها . ووضعت رأسها بين يديها . ولم ترَ مدام رون ، وجه الملكة ، فقد كان مختفياً وراء يديها النحيلتين . وظهر حول عنقها الأبيض الرشيقة ، شعرها الذي أصبح فاحم البياض ، منذ مرت الثلاث . . وعندما دخلت منظفة لابس ، لم تأمر الملكة بأقل حركة . ففهمت مدام بارون ، أن ماري انطوانيت ، تبكي وراء يها الملتحمتين . وشعرت منظفة الملابس ، بنوع من الاحترام ، نحو هذه المرأة الحزينة فهم مرة . فانسحبت منه هادئة وهي تمشي على أطراف قدميها .

وظلت مدام بارون ، في خدمة الملكة . وكانت تعرف أن الواجب على من يشتغلون من جناد ، ألاّ يتكلموا معهم وإلاّ . . .

لقد كان قصيدة باريون ... عمل في نفس الوحشية ، وساءلت نفسها ، أيجوز لهم الشرع ، أن يفرّقوا بين الأم وولدها ... كانت هي من اجترؤا عليها بهذه القسوة . إذن لأنتقمن منهم أفظع انتقام ، ثم أستلمها .

كانت مدام باريون ، تسير ولدها أينما ذهبت ، حتى إلى سجن الكونسيرجيري عندما كانت شوارع باريس في تلك الآونة ، تموج بالاضطرابات . والقوم يردّدون أنشودة الكرمانيول ، فيرتفع طنين الثورة عالياً .

كانوا أول الأمر يحجزون ابن مدام باريون ، عند بواب السجن ، ولكنهم تركوه أخيراً يدخل مع أمه ، عاملاً لها سلة الملابس .

وارتعدت الملكة ، يوم أن رأت ابن منظفة الملابس ، فسرى عليها الألم . ولكنها ما لبثت أن افترت من الطفل ، وسمحت على شعره بيدها المرتعشة . كان طفلاً لطيفاً جميلاً . تتجلى النباهة في نظرات عينيه الزرقاوين . لقد لفتوه الدوس ، وحذّروه أن يتكلم مع السيدة ذات الثوب الأسود — الملكة — ولكن ليس في استطاعتهم أن يمنعوه النظر إليها ! . نظر إليها دون خجل ، ولكن برهبة . وكذلك لم يستطيعوا أن يحرّموا عليه الابتسام . فابتسم للملكة . فكان ردها على نظرات الطفل وابتسامته ، أن العطفت نحوه تقبّل شعره الأشقر ! ...

واضطربت منظفة الملابس ، عندما رأت الملكة تتبعها بنظراتها ، وهي تخرج صحبة ولدها . كانت ماري انطوانيت ، تنظر إلى هذه المرأة الشعبية ، وهي ترحل عنها ممسكة بيد ولدها . ولا ريب أنها أحست بتيه من الحسرة .

رأت مدام باريون ، مع ولدها ، دخل سجن الملكة كالسادة . وكان أحد الجنود من حرّاس السجن ، قد داخله الشك في أمر الطفل ، فمنعه من الدخول . ولكن بخشونة وقسوة ، حتى جعله يقع فيصطدم بجبهته في زاوية مقعد من المقاعد الخشبية الغليظة . فصرخت الملكة ، كما صرخت مدام باريون نفس صرختها . ثم اندفعتا نحو الطفل بقوة واحدة ولكن الملكة كانت أسبق . فأنهضته ، وانتزعت من كومة الملابس القريبة منها ، منديلاً حملته على جبهة الطفل ، وكانت تنظر دماً . ثم صمتت إذ رأت الدم قد توقف على ذاته ، فحاول بذلك أن

تلطف عند الألم ، وتشرق المرأة أن ثمة فيها أن أخرى من وراء رأس الطفل ، تشرأب صبية تتكلم عن ظلم الانسان ، وعن شعرها ثم شعرتا وكأنهما قد ارتبطتا برباط أبدي منذ من ذلك اليوم ، وقد شعرت الملكة أن يدخل مع أمه حجرة الملكة . لما أصبحت منظفة الملابس والملكة ، ولهما لغة خاصة تتفاهمان بها . تلك هي لغة العيون . تسألها الملكة بأن ترفع حاجبيها نظرة إليها في قلق وخوف . وهذا معناه : « كيف حاله ؟ » تقرد عليها مدام باريون ، بأن تخفض عينيها في حركة سريعة ، بعد أن تنظر إليها نظرة يظهر فيها الاطمئنان . أي : « أنه بخير » .

وأنت أخيراً ، مدام باريون . أن الله سيرحم جيري وحيدة ، فقد كان ولدها الوحيد . وقالت للحارس بصوت بين العالي والمنخفض ، حتى يكون مسموعاً من الملكة : لقد مات وحيدي ، فولدي مريض !

كان مفروضاً على الملكة ، أن تعلم أحداً ولم تكن قد علمت هذا الأمر مسبقاً . إلا أنها سألت مدام باريون ، بصوت يحمل هذا القلق : « هل بعثوا بطبيب يعالج الطفل ؟ » وأحست مدام باريون ، بأن قلب يدوب تأثراً وكمداً . وأشارت لها بالنفي !

* * *

كانت مدام باريون ، تجلس بالقرب من سرير ولدها . وقد أصبح لا يغادر الفراش . فتأخذ يديه الصغيرتين بين يديها ، وهي تفكر في سؤال الملكة . وحنانها واهتمامها بالطفل ! وتأكدت مدام باريون ، ان جميع الأمهات لهن شعور واحد . ويعرفن كيف يتفاهمن فيما بينهن . بما في ذلك الملكات . ثم تأملت وهي تعصر ثوادها : « لماذا يريدون قتل هذه المرأة ؟ » .

أجل ، إن جميع الأمهات يكن في الظلام سواء . فمنذ ما ارتدت مدام باريون ، ثوب الحداد لموت ولدها وأنت بعد ذلك للعمل ثانية ، الى سجن الكونسيرجيري . وكان الحزن قد أسقمها . وبدا على وجهها الشحوب ، وتقرحت أجفانها من البكاء . فما أن دخلت الى حجرة الملكة ، حتى ركضت الى صغيرها وأخذته في احضانها . وكانت دموع

الطوائف تركة أم سلبه للملابس ، والدموع تسيل حارة فوق خديها !

ومنذ أن صعدت من الطوائف ، الى المتصة . جلست مدام باريون نفسها في مرفأ ، وهي تسمي هذه الأيام نسيانية . وكانت في عولها بعض الوقت . ولكنها عدلت عن ذلك . لئلا تثنيه اليها ظنون الجيران . ثم يجب ألاّ تتجه اليها الشكوك . وذلك من أجل الطفل ، ابن سجين المتصة — الذي وكل اليها أخيراً أمر العناية بملابسه . دون اخته الطفلة التي لا تعرف عنها شيئاً — ذلك الطفل الذي يعيش في وحدة وبؤس . وقد خيّل اليها وهي المرأة الشريفة ، أن عليها واجب حمايته بطريقة خفية !

كيف استطاعت هذه امرأة ، أن تجعل أولئك القوم ، المرضى بحب التجسس ، يتركونها تداوم الذهاب الى سجن المتصة ، دون أن يبحثوا عنها أو يلتفتوا اليها ؟ ذلك انهم رأوا فيها امرأة عصبية ، قد استبدت بها الحزن لموت زوجها . فهي تحب العزلة ، ولا تحب أن تتكلم أو تنظر الى أحد ، ولكنها ترى وتسمع كل شيء ، ولا تفوتها كلمة أو اشارة تتوهم أنها قد تمس حياة الطفل .

* * *

ولاحظت مدام باريون أن قلبها ينوب أسىً وحزناً . إن الطفل المسجون قد أصبح خجلاً وزاد شحوبه . كما انه كان يجلس مطأطئ الرأس فوق سريره الصغير . لا يتحرك وقد تدلى ساقاه . وكأنما هو غريق في لجة من الحزن ! وكان بالتقرب منه بعض العون . ولكنها فزعة ألفها يوزعن بعيد . كما أحزنها أنه أصبح قليل الكلام . غير أنها سمعته يوماً يتكلم . كان يتكلم متأوّهاً . وكأنما يخاطب نفسه . ذاكراً « نويل » وحدايا في الأيام الخالية . ثم توسل اليه أن يهديه كتاباً مصوّراً ! لقد وصل أن تبع المسكين أن عيد الميلاد آت بعد قليل !

لقد أقبل نويل ! انهم قطعوا الرقاب ، وغيروا الأوضاع . ولكن ليس في مقدورهم أن يمنعوا سفار الأطفال ، أن ينتظروا مجيء الطفل يسوع عند المذاة !

كانت مدام باريون ، قد احتفظت بلعب ولدها بعد وفاته ، كتذكرة للذكرى . وكان منها كتاب مصوّر

لم يتوصل أي انسان ، الى معرفة ما هي الطريقة التي أمكن بها لمدام باريون أن تدخل في ساعة متأخرة من ليلة عيد ميلاد المسيح ، الى حجرة ولي العهد النحيل . وأن تضع حذاءه الصغير في المدخنة سرًا ، قبل أن ينام . فاذا أصبح الصباح ، وجد الطفل « كتاب الصور » فوق حذائه . أما منطقة الملابس ، فقد قبض عليها .

لم يكتشفوا شيئاً في الكتاب ، يوجب الريبة . ولكن حوكمت مدام باريون ، أمام محكمة التوزة ، وحكمت بادانتها ، بدعوى انها ارتكبت والطفل سجين المعبد ، جريمة « التواطؤ السري » ولأنها خانت « ثقة الشعب » وعلى ذلك ، فقد حكم عليها بالاعدام . ولما علم مدام باريون من نفسها ، انها كانت تعلم أنهم سوف لا يدركون معنى ما تريد أن تقول ، دفاعاً عن نفسها ، ولم تكن كذلك ، تشعر بالخوف من الموت ، أو بالاسف على الحياة . ولكنها أصبحت ثابتة النفس ، هادئة الفؤاد إنها ستترك الطفل السجين ، وحيداً في هذه الحياة ! ...

وعندما غادروا مدام باريون ، الى السجن المعد لها ، سألت الجندي الذي كان يقودها من أحد الدهاليز الموصلة الى حجرتها : « بربك يا سيدي : ماذا قال الطفل عندما وجد كتاب الصور ؟ » ولم يكن ذلك الجندي شريراً قاسياً كما كان الآخرون . فأعطته الشفقة من أجل تلك المسكينة . وقال لها بصوت خافت ، وهو يرفع كتفيه : تسألين ماذا قال ! لقد فعل ما تفعله جميع الأطفال : صفق بيديه طرباً . وصاح قائلاً : « ها قد فكر في نويل المرة أخرى ! أنهم لم يتمكنوا من أن يفعلوه مني أبداً » . فابتسمت المرأة الشعبية ، وفاض على وجهها البشر والسرور . ثم قالت بعد أن فكرت قليلاً : « إنه ليس بالشيء الكثير ، إذا أنا ضحيت بحياتي في سبيل أن أبعث الفرح في قلب طفل صغير مسكين مثله الجميع »

* * *

وها هي ذي تلك المرأة الحقيرة الشأن ، ترتفع بتضحيتها هذه ، وهي لا تعلم ، الى أعلى الرتب العظيمة . فتأخذ مكانها بجانب من ضحوا بأشرف التضحيات وأسمى

تفتت حسن